بسم الله الرحمن الرحيم

مؤسسة آل البيت الملكية للفكر الإسلامي

المؤتمر العام الخامس عشر لأكاديمية آل البيت الملكية

١٨ـ٢٠ شوال ١٤٣١هـ الموافق ٢٧ـ٢٩ أيلول/سبتمبر ٢٠١٠م

البيئة في الإسلام

البيئة في القرآن الكريم والحديث النَّبويِّ الشريف

الشيخ أبو بكر أحمد الملباري

بسم الله الرحمن الرحيم

مؤسسة آل البيت الملكية للفكر الإسلامي

عمّان- المملكة الأردنيّة الهاشميّة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتّقين والصّلاة والسّلام على سيّدنا وحبيبنا محمد بن عبد الله ρ وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدّين أمّا بعد؛

فإنّ الحديث عن البيئة ورعايتها في منظور القرآن الكريم والسّنّة المطهّرة قد يستغرب منه البعض الذين لم يقفوا على الإسلام من جميع نواحيه، وظنّوا أنّ الإسلام يقتصر على أداء العبادات الشعائريّة فحسب، وأنّ الفقه الإسلامي يعنى بأداء الصّلاة والزّكاة والصّيام والحجّ.... ويمتد ليشمل المسائل المتعلّقة بالحيض والنّفاس والاستنجاء والتيمّم..... ولا علاقة للإسلام بالكون ولا بالإنسان ولا بالحياة ولا بالبيئة ولا بهذه الأشياء... وهذه نظرة قاصرة في فهم رسالة الإسلام وهي من سلسلة المفاهيم الخاطئة التي ينبغي أن تصحح.

والحقيقة أنّ رسالة الإسلام رسالة شاملة تشمل الدّين والدّنيا، والعقيدة والشّريعة، والدّعوة والدّولة، والفرد والمجتمع، فهي تشمل الحياة الإنسانيّة كلّها بل الكون كلّه.

فالذي درس الإسلام بجميع نواحيه عرف أنّ للإسلام نظرةً وفكرةً وفلسفةً وتوجيهاً وأحكاماً في كل قضيّة من قضايا الحياة الكبرى، ومن أجل ذلك نرى أنّ الإسلام عُني بالبيئة عناية كبيرة، وقد وجدنا أنّ مَن نظر إلى العلوم الإسلاميّة الأساسيّة يجد أنّ كل هذه العلوم اهتمّت بشأن البيئة وحمايتها ورعايتها، حتى علم العقيدة في الإسلام اهتم بها لأنّه يهتم بالألوهيّة، فالله سبحانه وتعالى خلق كل شيء في هذا الكون بأحسن صورة وأبدع صنعه [فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ] [المؤمنون: 14]، [ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ] [السّجدة: 7]، [وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ] [النّمل: 88]، فهذا الكون يعني [مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖ] [الملك: 3]،

ولذلك فكلّ فساد يأتي هو من صنع الإنسان وليس من صنع الله [ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ] [الرّوم: 41].

فمَن نظر إلى الإسلام وحتّى الجانب العقيدي فيه يجد أنّ له علاقةً بالبيئة، والفقه الإسلامي يعنى بجوانب كثيرة جداً في البيئة، حتى في باب الطّهارة والنّجاسة تأتي الأحاديث التي تنهانا عن البول في الماء الرّاكد، أن يبول الإنسان في الماء الذي لا يجري ثمّ يتوضّأ منه أو يغتسل فيه، فالنّبيّ ρ لعن من استخدم البُراز في موارد المياه.. أو في قارعة الطّريق.. أو في الظِّل.. حيث يُفسد البيئة بهذه!! فالفقه يعنى بهذا، وكذلك التّصوّف والجانب الأخلاقي يعنى بهذا؛ لأنه يعنى بالإحسان «الإحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[1] والإحسان يشمل كل شيء[وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ] [البقرة: 195]، والرّسول عليه الصّلاة والسّلام يقول: «إِنَّ الله كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ»[2].

أمَّا علم أصول الفقه فنجده يعنى بمقاصد الشّريعة، بالضّروريّات الخمس التي حثّت الشّريعة على المحافظة عليها، وهي: المحافظة على الدّين، والمحافظة على النّفس، والمحافظة على النّسل، والمحافظة على المال، والمحافظة على العقل، كلّ هذه الضّروريّات لها علاقة وطيدة بالبيئة والحفاظ عليها لأنّه إذا أفسدنا البيئة لم نحافظ على أنفسنا ولا على صحتنا، إذ إنّ فساد البيئة وتلوّثها يمسّنا في حياتنا الصّحيّة وكذلك المحافظة على النّسل إنّما تحصل بحماية البيئة ورعايتها وإذا أفسدنا البيئة لم نحافظ على نسلنا لأنّه

---

(1) متّفق عليه.

(2) صحيح مسلم : باب الأمْر بإحْسَان الذَّبْح وَالْقَتْل وَتَحْدِيدِ الشَّفْرَةِ.

اعتداء وتهديد على حياة الأجيال والذريّة القادمــة والقرآن يقــول: [وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ] [البقرة: 205] وعدم الحفاظ على البيئة وتوازنها يؤدّي بدوره إلى عدم المحافظة على العقل أيضاً، لأنّه من ضمن الأشياء التي يحافظ عليها.. وإنّ من عوامل وأركان الجسمِ الصّحيح والبدنِ الصّحيح القلبَ الصّحيح والعقلَ الصّحيح..... فمَن نظر إلى علومنا الإسلاميّة يجد أنّ لهذه العلوم علاقة مؤكّدة بحماية البيئة ورعايتها.

فالإسلام دين حياة، صالح لكلّ زمان ومكان، صالح لكلّ الشّعوب على اختلاف ثقافاتهاوحضاراتها، ولكنّ المشكلة تأتي إذا لم يستطع المنتمون إليه تطبيقه بالشّكل الصّحيح وعلى النّحو المطلوب في الحياة كما فشلوا في تبليغ مبادئه وتعليماته وتعريف الآخرين بها. ولا بدّ أن نعرف طريقة الإسلام للحياة ثمّ نحاول توفيقها مع مستجدّات عصرنا لنصل إلى النّموذج العصريّ للمسلم الذي يحترم دينه وفى نفس الوقت يمارس حقّه في الحياة؛ لأنّ مبادئ الدّين الإسلامي ليست مجرّد مبادئ نظريّة أو فلسفيّة؛ ولكنّها دستور شامل يضمن السعادة في الدّنيا والآخرة وصالحة للتّطبيق في حياتنا اليوميّة. فَمِن عدمِ تطبيقها في الحياة تأتي المشكلة.

فالبيئة عندما يستخدمها ويتصرّف فيها الإنسان عشوائياً وبدون تفكّر في المصير لا يهمّه إلّا إشباع أطماعه الشّخصيّة ومتطلّباته المشروعة وغير المشروعة ولا يبالي بما سوف تخلّف تصرّفاته في البيئة من تأثيرات سلبيّة ونتائج وخيمة، فيتسبّب كلّ هذا في هلاكٍ وفساد في الأرض ممّا يهدّد توازن - وحتّى بقاء - هذه الطّبيعة البيئيّة. وأنّ تقدم مستوى حياة الإنسان ومواكبة الحداثة والاكتشافات العلميّة الجديدة التي شهدها العالم مؤخراً - وإن كان لها أثر إيجابي وجانب مريح - قد مسّ البيئة بسوء إلى درجة كبيرة بحكم التّقدّم

والرّقي أو "الإصلاح"! ولا يشعرون أنّهم بحجّة هذا يفسدون في الأرض في أهلها وفي بيئتها وفي نظامها المتين [وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ] [البقرة: 11، 12].

ومن ثمّ تحصل القضيّة البيئيّة التي ما زالت من أهمّ القضايا التي تواجه الإنسانَ في العصر الحديث؛ فهذه المشكلة لا تهدّد الإنسان المعاصر في حياته فحسب، بل تهدّد حقّ الأجيال القادمة في عيشهم ضمن مناخ صحّي متناغم. وبصفتها تلك تظهر أمامنا كقضيّة عالميّة. والإنسان المعاصر رغم الاكتشافات المذهلة التي شهدها في مجال العلم والتكنولوجيا لم يستطع التّعامل مع البيئة والطّبيعة بشكل متوازن.

ونعني بـ"البيئة" كلّ الظّروف الطّبيعيّة التي نعيش فيها مع الكائنات الأخرى. فكما أنّ منزل الإنسان وحديقته والهواء الذي يستنشقه والماء الذي يشربه والمدينة التي يعيش فيها والنّاس الذين يعيش معهم يشكّلون جزءًا من بيئته؛ فإنّ الغابات والجبال والأنهار والبحار التي يشترك فيها الناس هي الأخرى جزء من بيئته.

ونعني بقضايا البيئة فساد المناخ في عالم الطّبيعة الذي يحيط بنا، وانقراض أنواع الحيوانات، والاستهلاك الزّائد، وتلوّث الطّبيعة، علاوة على التلوّث الاجتماعي في البيئة كالفقر والجوع والهجرة والقهر والقمع والأطفال المشرّدين في الشّوارع وإدمان المخدرات وغيرها من القضايا الاجتماعيّة. وعندما يُنظر إلى أساس تلك المشاكل، يظهر أنّ غالبيّتها العظمى ذات مصدر إنساني. ولهذا يربط كثير من المسلمين قوله تعالى: [ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ] [الروم: 41]. بقضايا البيئة، إذ من المعلوم أنّ أكثر ما يفسد التّوازن في الطّبيعة هو الاستهلاك الزّائد والإسراف وهدر المصادر الطّبيعيّة بشكل مفزع.

وسوف يدفع الإنسان ثمن تلك الأضرار التي ألحقها بالطّبيعة وبالبيئة منذ قرون طويلة. ولقد أغفل من يضرّون بالبيئة- نتيجة الأطماع الشّخصيّة، والرّغبة في كسب أكثر، ودون أدنى شعور بالمسؤوليّة، وبغباء - حقيقة كونهم جزءاً من الطّبيعة وأن ما تسبّبوا فيه من الأضرار سوف يحلّ بهم كذلك.

البيئة في اللغة:

أصل كلمة " البيئة " مشتقّ من الفعل الماضي باء وبَوَأ، ويستعمل " باء " و "بوأ " لعدّة معان، وأشهرُ معانيه التي تهمّنا - ونحن بصدد البحث عنه - يرجع إلى الفعل "باء" الذي مضارعه "يتبوّأ" بمعنى ينزل ويقيم؛ وبوَّأ له منزلاً هيّأه ومكّن له فيه[1]، وفي لسان العرب لابن منظور "والاسم البِيئةُ، واسْتَباءه أي اتَّخَذَهُ مَباءة وتَبَوَّأْتُ منزلاً أي نَزَلْتُه"، وقوله تعالى: [وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ] [الحشر: 9] جَعلَ الإيمانَ مَحَلّاً لهم على المَثَل... وتَبَوَّأ المكانَ حَلَّه وإنه لَحَسَنُ البِيئةِ أي هيئة التَّبَوُّءِ والبيئةُ والباءة والمباءة المنزل وقيل مَنْزِل القوم حيث يَتَبَوَّأُونَ من قِبَل وادٍ أو سَنَدِ جَبَلٍ...؛ وتَبَوَّأ فلان مَنْزِلاً أي اتّخذه وبَوَّأْتُهُ مَنْزِلاً..... وأبَأْتُ القَومَ منزلاً وقال الفرَّاء في قوله Y: [وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا] [العنكبوت: 58] يُقال بَوَّأْتُه منزلاً وأثْوَيْتُه مَنْزِلاً ثُواءً أنْزَلْتُه وبَوَّأْتُه منزلاً أي جعلته ذا منزل، وفي الحديث: «مَن كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَه من النار»[2]، وتكرّرت هذه اللّفظة في الحديث ومعناها لِيَنْزِلْ مَنْزِله مِن النار يقال بَوَّأه اللهُ منزلاً أي أسكَنه إياه.....؛

---

(1) القاموس المحيط للفيروزآبادي 1 /2.

(2) صحيح البخاري باب إثْمِ مَنْ كَذَبَ عَلَى النَّبيِّ ε : صحيح مسلم باب في التَّحْذِيرِ مِنَ الْكَذِبِ عَلَى رَسُولِ الله ε : سنن التّرمذي باب مَا جَاءَ فِي تَعْظِيمِ الْكَذِبِ عَلَى رَسُولِ الله ε.

وباءَتْ ببيئةِ سُوءٍ على مِثالِ بيعةٍ أي بحالِ سُوءٍ وإنه لحَسَنُ البيئةِ[1] وجاء نحوه في تاج العروس من جواهر القاموس لمرتضى الزَّبيدي[2].

وقد ترجمت كلمة Ecology إلى اللّغة العربيّة بعبارة "علم البيئة" التي وضعها العالم الألماني أرنست هيجل Ernest Haeckel عام 1866م بعد دمج كلمتين يونانيتين هما Oikes ومعناها مسكن، و Logos ومعناها علم وعرّفها بأنها: "العلم الذي يدرس علاقة الكائنات الحيّة بالوسط الّذي تعيش فيه ويهتمّ هذا العلم بالكائنات الحيّة وتغذيتها، وطرق معيشتها وتواجدها في مجتمعات أو تجمعات سكنيّة أو شعوب، كما يتضمن أيضاً دراسة العوامل غير الحيّة مثل خصائص المناخ (الحرارة، الرّطوبة، الإشعاعات، غازات المياه والهواء) والخصائص الفيزيائيّة والكيميائيّة للأرض والماء والهواء.

وتعني البيئة في الاصطلاح: مجموعة النُّظم الطّبيعيّة والاجتماعيّة التي يعيش فيها الإنسان والكائنات الأخرى والتي يستمدّون منها زادهم ويؤدّون فيها نشاطهم[3] ويمكن أن نعرّفها بأنها: "كل شيء يحيط بالإنسان" أو أنها كما قال د. راتب السّعود: " الإطار الذي يحيا فيه الإنسان ويحصل منه على مقوّمات حياته ويمارس فيه علاقته مع بني البشر[4].

ويمكننا تعريف البيئة في إطار القرآن الكريم والحديث النّبويّ الشّريف بأنّها: كلّ ما يحيط بالإنسان ويقيم فيه ويستهلكه ويستفيد منه من أرض وماء وهواء ومباني وحدائق وغابات، وما يعيش عليها من حيوان وزروع وأشجار... وما إلى ذلك..

---

(1) لسان العرب لابن منظور 1 / 36.

(2) تاج العروس 1 / 82 .

(3) كيمياء التلوّث البيئي الكيميائي، عدنان مساعدة، ص 23.

(4) الإنسان والبيئة، د. راتب السعود .

مادّة البيئة في القرآن الكريم:

وردت اشتقاقات البيئة في القرآن الكريم في عدّة سور كريمة ففي سورة الأعراف: [وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ] [الأعراف: 74] [وَبَوَّأَكُمۡ] أسكنكم وأنزلكم[1].

وجاء في تفسير أبي السّعود [وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ] أي جعل لكم مَباءةً ومنزلاً في أرض الحِجْر بين الحجاز والشّام[2]. وفي سورة يونس [وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّـَٔا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ] [يـــــونس: 87]، والتبَوّء اتّخاذ المباءة أي المنزل كالتوطّن اتّخاذ الوطن[3]، وفي نفس السّورة: [وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ] [يونس:93]. وفي سورة العنكبوت: [وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ] [العنكبوت: 58] أي: لنسكننهم منازل عالية في الجنّة[4] [وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ] [الحشر: 9]، أي اتخذوا المدينة منزلاً وسكناً وهم الأنصار. وفي سورة الزّمر: [وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ] [الزّمر: 74] أي: ينزل كل واحد منّا من جنته الواسعة حيث يريد، دون أن يزاحمه فيها مزاحم أو ينازعه منازع[5] [

---

(1) تفسير معالم التنزيل للبغوي 3 / 247 .

(2) تفسير أبي السّعود [إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم] 3 /6.

(3) تفسير الآلوسي [روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني] 8 /92 .

(4) تفسير ابن كثير 6 /292.

(5) التّفسير الوسيط لمحمد سيّد طنطاوي.

وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ] [يوسف: 56]: يتّخذ منها منزلاً حيث يشاء، ويتصرّف في المملكة كما يريد[1].

وقال تعالى في سورة يونس: [وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً] [يونس: 87] قال الإمام أبو حيان الأندلسي رحمه الله: "وتبوآ اتخذا مباءة أي مرجعاً للعبادة والصّلاة كما تقول: توطّن اتّخذ موطناً، والظّاهر اتّخاذ البيوت بمصر"[2].

عناصر البيئة:

وبما أنّ البيئة بمفهومها العام قد تتّسع دائرتها لتشمل منطقة كبيرة جداً وقد تضيق لتشمل منطقة صغيرة جداً لا تتعدّى رقعة البيت الذي يسكن فيه، وعليه فإنّ كلمة "البيئة" تعني كل العناصر الطّبيعيّة والحياتيّة التي تتواجد حول الكرّة الأرضية وعلى سطحها وفي داخلها. فالغلاف الغازي ومكوّناته المختلفة، والمصادر الطّبيعيّة، والطّاقة ومصادرها، والغلاف المائي وما بداخله، وسطح الأرض وما يعيش عليها من نباتات وحيوانات، والإنسان في تجمّعاته المختلفة كلّها مكوّنات البيئة و عناصرها.

ويمكننا أن نقول: إنّ النّظام البيئي يتكوّن - بناء على توصيات مؤتمر ستوكهولم - من العناصر التالية:

1) البيئة الطّبيعيّة:- وهي العناصر غير الحيّة من الغلاف الحيوي للبيئة وتتكوّن من أربعة نظم مترابطة ترابطاً وثيقاً هي: الغلاف الجوي والغلاف المائي واليابسة والمحيط

---

(1) صفوة التّفاسير لمحمّد علي الصّابوني.

(2) تفسير البحر المحيط 6 / 350.

الجويّ، بما تشمله هذه الأنظمة من الماء والهواء والتّربة والمعادن، ومصادر للطّاقة بالإضافة إلى النّباتات والحيوانات.

وهذه جميعها تمثّل الموارد التي أتاحها الله سبحانه وتعالى للإنسان لكي يحصل منها على مقوّمات حياته من غذاء وكساء ودواء ومأوى.

2) البيئة البيولوجيّة:- وتشمل الإنسان "الفرد" وأسرته ومجتمعه، وكذلك الكائنات الحيّة في المحيط الحيوي وتعد البيئة البيولوجيّة جزءاً من البيئة الطّبيعيّة.

3) البيئة الاجتماعيّة:- ويقصد بالبيئة الاجتماعيّة ذلك الإطار من العلاقات الذي يحدد ماهيّة علاقة حياة الإنسان مع غيره، ذلك الإطار من العلاقات الذي هو الأساس في تنظيم أي جماعة من الجماعات سواء بين أفرادها بعضهم ببعض في بيئة ما، أو بين جماعات متباينة أو متشابهة معاً وحضارة في بيئات متباعدة، وتؤلّف أنماط تلك العلاقات ما يعرف بالنّظم الاجتماعيّة، واستحدث الإنسان خلال رحلة حياته الطّويلة بيئة حضاريّة لكي تساعده في حياته فعمّر الأرض واخترق الأجواء لغزو الفضاء.

وعناصر البيئة الحضاريّة للإنسان تتحدّد في جانبين رئيسيين هما:

أولاً: الجانب المادي، وهو كلّ ما استطاع الإنسان أن يصنعه كالمسكن والملبس ووسائل النّقل والأدوات والأجهزة التي يستخدمها في حياته اليوميّة.

ثانياً: الجانب غير المادي، ويشمل عقائد الإنسان و عاداته وتقاليده وأفكاره وثقافته وكلّ ما تنطوي عليه نفس الإنسان من قيم وآداب وعلوم تلقائيّة كانت أم مكتسبة.

وإذا كانت البيئة هي الإطار الذي يعيش فيه الإنسان ويحصل منه على مقوّمات حياته من غذاء وكساء ويمارس فيه علاقاته مع أقرانه من بني البشر، فإنّ أوّل ما يجب على الإنسان تحقيقه - حفاظاً على هذه الحياة- أن يفهم البيئة فهماً صحيحاً بكل عناصرها

ومقوّماتها وتفاعلاتها المتبادلة، ثم أن يقوم بعمل جماعي جاد لرعايتها وتحسينها وأن يسعى للحصول على رزقه وأن يمارس علاقاته دون إتلاف أو إفساد.

عناصر البيئة في القرآن الكريم:

وسبق معنا أنّ عناصر البيئة تنقسم إلى الطّبيعيّة والبيولوجيّة والاجتماعيّة؛ والطّبيعيّة منها تنتظم من الغلاف الجوي والغلاف المائي واليابسة والمحيط الجوي، بما تشمله هذه الأنظمة من الماء والهواء والتّربة والمعادن.

الغلاف الجوي في القرآن الكريم:

وهو الغطاء الغازي الذي يحيط بالأرض وهو مزيج من الغازات مثل النيتروجين 75% والأوكسجين 23% والأرجون 3 , 1% وثاني أكسيد الكربون 04, % وبعض الغازات الأخرى ضئيلة النّسبة مثل النيون، والكربتون، والسينون، والهيدروجين، والهيليوم... هذا من حيث الكتلة. أمّا من حيث الحجم فإنّ هواء الغلاف الجوي يتألف من النيتروجين 78 % والأوكسجين 21 % والأرجون 93, % وثاني أكسيد الكربون 03, % والباقي غازات أخرى ضئيلة النّسبة[1].

وتكمن الأهمّيّة التي يحتلّها هذا العنصر البيئي بالنّسبة للإنسان وسائر الكائنات الحيّة وغير الحيّة في استخلاص الكائنات للغاز الذي تستنشقه من هذا الغلاف الجوي... وقد ذكرها القرآن الكريم في عدّة آيات كريمة وأبان فيها عن أهمية الجو وما به من هواء وحركة رياح، وإلى جانب أنّ الهواء عنصر لا حياد عنه في بقاء حياة الكائنات الحيّة إذ

---

(1) دائرة المعارف العالميّة (بلغة ملايالم : نشرتها الجمعيّة التّعاونيّة للنّشاطات العلميّة والأدبيّة بكيرالا) 220/9.

يقوم الهواء بمهمّة حمل اللقاح بين الكائنات النّباتيّة، قال تعالى: [وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ.....] [الحجر: 22].

وفي وظيفة حمل كلّ طائر قال تعالى: [أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ] [النّحل: 79]. وقال تعالى في وظيفة الهواء في حمل السّحب وسوق الأمطار: [وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ] [البقرة: 164] [وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ] [الجاثية: 5].

وقد أشار القرآن الكريم في سورة الحجر إلى دورة غاز ثاني أوكسيد الكربون [وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ] [الحجر: 19]، فقد شاءت قدرة الله تعالى أن خَلَقَ النّباتات الخضراء وخلق الإنسان والحيوان، وكلّ منهما يستخدم النّبات في غذائه وتقوم الكائنات الدّقيقة بتحليل بقايا النّبات والحيوان وتحوّلها مرة ثانية إلى غاز ثاني أكسيد الكربون والعناصر الأساسيّة التي تتكوّن فيها هذه النّباتات وهذه الأدوار التي تقوم بها هذه المخلوقات لتحافظ على توازن النّظام البيئي. وفي سورة الرّوم يتعرّض القرآن الكريم إلى شكل خطير من أشكال التلوّث الغازي: [وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ] [الروم: 51] فهو هواء ملوّث وممتلئ بالغبار والأتربة والرمال يؤدي إلى هلاك الزّرع والضّرع وغالباً ما يصاحبه موت المزروعات. وفي سورة الأحقاف: [فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ] [الأحقاف: 24، 25].

فالغلاف الجوي هو سقف العالم المحفوظ الذي خلقه الله تعالى محيطاً بالأرض و(الأوزون) طبقة من طبقات هذا السّقف المحفوظ ويرى المفسّرون أنّ الآية من سورة الأنبياء تشير إلى هذا الغلاف الجوي وتصفه بأنّه سقف محفوظ من التّسرّب والانفلات إلى الفضاء الكوني وفيه القبّة الزّرقاء وهي ظاهرة ضوئيّة، وطبقة الأوزون سقف وضعه الله حول الأرض ليحمينا من الشّهب والأشعة الكونيّة وليكوّن بيئة هوائيّة تَحدث فيها الظّواهر الجويّة المسخّرة لحياة الإنسان. قال الله تعالى: [وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ] [الأنبياء: 32]، إنّ المقصود هو السّماء الدّنيا - وليس العالم العلوي - والتي تحيط بالأرض وزَيَّنها الله بمصابيح الشّهب الرّاجمة للشّياطين وهي التي يغطش ليلها ويخرج ضحاها إنها السّماء الدّنيا، السّقف المحفوظ.

الغلاف المائي في القرآن الكريم:

يقدّر العلماء كميّة الماء الموجودة بالعالم بحوالي 4 , 1بليون كم^3 ، منها حوالي 1360 مليون كم^3 ماء مالح أي 2 , 97 في المائة، على حين تبلغ كميّة الماء العذب 40 مليون كم^3 أي 8 , 2 في المائة إلّا أنّ حوالي ثلاثة أرباع هذا الماء العذب يوجد على هيئة جليد في مناطق القطبين ومرتفعات الجبال، في حين تبلغ نسبة الماء العذب الصّالح للاستخدام البشري حوالي 8 , 0 في المائة فقط أي حوالي 12 مليون كم^3 تتوزّع في الأنهار والبحيرات، وحوالي 4 , 0 مليون كم^3 في باطن الأرض، الأمر الذي ينبىء بأزمة مياه كميّة وكيفيّة في العالم خلال الرّبع الأوّل من الألفيّة الثّالثة.

يعتبر الماء العنصر الأوّل من عناصر النّظام البيئي في القرآن الكريم؛ ولأهميّة هذا العنصر للإنسان وسائر الكائنات، وبما أنّ الماء هو منبع الحياة ومهدها الأوّل، فقد ذكره القرآن الكريم بما يزيد عن أربعين مرة. يقول تعالى في سورة الأنبياء: [أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا

أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۖ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ] [الأنبياء: 30].

وإضافة إلى ذلك يبيّن تعالى أنّ الماء هو منبع الموارد الضّروريّة ويتحدّث عن دوره في إنبات النّباتات والزّروع والثّمار التي لا بدّ منها للكائنات الحيّة، ففي سورة البقرة يقول تعالى: [ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ] [البقرة: 22]. وفي سورة إبراهيم: [ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ] [إبراهيم: 32] [خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ] [لقمان: 10].

ويوضّح تعالى أنّه أحيا الأرض القاحلة الجرداء بإنزال الماء عليها حتى تجود الأرض بمواردها [وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ] [الحج: 5].

وفي سورة الفرقان: [وَهُوَ ٱلَّذِي أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ۝٤٨ لِّنُحۡيِيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا] [الفرقان: 48، 49].

و الماء الّذي تتحدّث عنه الآية الكريمة هو الماء النّقي الّذي يشتمل على المكونات الأساسيّة دون أيّة شوائب أو ملوّثات تغيّر من خصائصه الكيميائيّة أو غير الفيزيائيّة أو الحيويّة، ويتّصف بخلق الكون أو الطّعم أو الرّائحة و تؤكّد الآية التّاسعة من سورة "ق" هذه الخصائص والصّفات التي يتّصف بها الماء [وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ] [ق: 9].

والنّاظر في كتاب الله العزيز يجد أنّ مصادر الماء خمسة: الأمطار، والأنهار، والبحار، والعيون، والآبار الجوفيّة.

أمّا ماء المطر يقول تعالى في سورة الرّعد: [أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ] [الرّعد: 17] وفي سورة النّحل: [هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ] [النّحل: 10].

وفي دائرة المعارف العالميّة التي صدرت عن الجمعيّة التّعاونيّة للنّشاطات العلميّة والأدبيّة بلغة ملايالم: "أنّ الكرة الأرضيّة فيما قبل بليون ونصف سنة وبعد انفصالها عن الشّمس كانت كرة غازيّة حارّة. فآنذاك كانت جميع العناصر في الكرة الأرضيّة حارّة، وكان من المستحيل حدوث أي عمل كيماوي فلم يتمكّن الأوكسجين من الاختلاط مع الهيدروجين، ولما أخذت الكرة الأرضيّة تتبرّد تدريجيّاً تبرّدت معها الطّبقة الخارجيّة للأرض، إلّا أنّ الطّبقة الدّاخليّة لم تزل مائعة حارّة، وبعد أن هبطت حرارة الجو طفق الأوكسجين يختلط مع الهيدروجين فتكوّن الماء، غير أنّ الماء لم يجد موقعاً في الأرض، فسرعان ما تحوّل إلى بخار وارتفع، وبما أن درجة الحرارة هناك كانت منخفضة بالنّسبة إلى الأرض تصلّب البخار المائي وتحوّل إلى سحاب وثلج ومطر؛ وبعد أن تبرّد سطح الأرض سال ماء المطر وجرى في الأرض فامتلأت الحفر وهكذا تواجدت الأنهار والبحار"[1].

---

(1) دائرة المعارف العالميّة (بلغة ملايالم) 13/10.

يقـول تعـالى: [فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ] [عبس: 24- 32].

ويقرر الأستاذ سيّد قطب: [أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا] [عبس: 25]... وصبّ الماء في صورة المطر حقيقة يعرفها كلّ إنسان في كلّ بيئة، في أيّة درجة كان من درجات المعرفة والتّجربة، فهي حقيقة يخاطب بها كلّ إنسان. فأمّا حين تقدّم الإنسان في المعرفة فقد عرف من مدلول هذا النّص ما هو أبعد مدى وأقدم عهداً من هذا المطر الذي يتكرّر اليوم ويراه الجميع. وأقرب الفروض الآن لتفسير وجود المحيطات الكبيرة التي يتبخر ماؤها ثمّ ينزل في صورة مطر، أنّ هذه المحيطات تكوّنت أوّلاً في السّماء فوقنا ثمّ صُبَّت على الأرض صبّاً!

وفي هذا يقول أحد علماء العصر الحاضر: إذا كان صحيحاً أنّ درجة حرارة الكرة الأرضيّة وقت انفصالها عن الشّمس كانت حوالي12000 درجة فهرنهايت أو كانت تلك درجة حرارة سطح الأرض، فعندئذ كانت كل العناصر حرّة. ولذا لم يكن في الإمكان وجود أي تركيب كيميائي ذي شأن. ولما أخذت الكرة الأرضيّة، أو الأجزاء المكوّنة لها في البرود تـدريجياً، حـدثت تركيبـات، وتكوّنـت خليّـة العـالم كمـا نعرفـه. ومـا كـان للأوكسـجين والهيدروجين أن يتّحدا إلّا بعد أن هبطت درجة الحرارة إلى 4000 درجة فهرنهايت. وعند هذه النّقطة اندفعت معاً تلك العناصر، وكوّنت الماء الذي نعرفه الآن أنه هواء الكرة الأرضيّة. ولا بدّ أنّه كان هائلاً في ذلك الحين. وجميع المحيطات كانت في السّماء. وجميع تلك العناصر التي لم تكن قد اتّحدت كانت غازات في الهواء، وبعد أن تكوّن الماء في الجو الخارجي سقط نحو الأرض، ولكنّه لم يستطع الوصول إليها، إذ كانت درجة الحرارة على

مقربة من الأرض أعلى ممّا كانت على مسافة آلاف الأميال. وبالطّبع جاء الوقت الذي صار الطّوفان يصل فيه إلى الأرض ليطير منها ثانية في شكل بخار. ولما كانت المحيطات في الهواء فإنّ الفيضانات التي كانت تحدث مع تقدّم التّبريد كانت فوق الحسبان. وتمشى الجيشان مع التفتت.... إلخ ؟.

وهذا الفرض - ولو أنّنا لا نعلّق به النّصّ القرآني - يوسّع من حدود تصوّرنا نحن للنّصّ والتّاريخ الّذي يشير إليه. تاريخ صبّ الماء صبّاً. وقد يصحّ هذا الفرض، وقد تجدّ فروضاً أخرى عن أصل الماء في الأرض. ويبقى النّصّ القرآني صالحاً لأن يُخاطَب به كل النّاس في كل بيئة وفي كل جيل[1].

أمّا الأنهار فقد جاء في سورة البقرة: [ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ] [البقرة: 74] وفي ذلك إشارة علميّة لطيفة إلى منابع الأنهار التي تنبع معظمها من الجبال والهضاب، فعلى سبيل المثال ينبع نهر النّيل من هضبة فكتوريا، والفرات من هضبة أرمينيا، ودجلة من جبال طوروس، والأمازون من جبال الأنديز في البيرو.

أمّا العيون فقد جاء في سورة يس: [وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ] [يس: 34] ووردت لفظة البئر في سورة الحجّ: [فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ] [الحجّ: 45].

أمّا الآبار الجوفيّة وما يسمّى بالخزانات الجوفيّة جاء في سورة الزّمر [أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا

---

(1) في ظلال القرآن 6 / 3832 : 3833.

ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ] [الزّمر: 21] . وفي سورة الحجر: [وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ] [الحجر: 22]. وفي سورتيّ الكهف والملك لفت القرآن الكريم أنظار المؤمنين إلى ظاهرة خطيرة وهي عدم استقرار المياه الجوفيّة، ففي سورة الكهف: [أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا] [الكهف: 41]. وفي سورة الملك: [قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۢ] [الملك: 30] . يقول الأستاذ سيّد قطب- رحمه الله- الماء الغور: الغائر الذاهب في الأرض لا يقدرون عليه.

ويذكر القرآن الكريم البحار في مواطن عديدة فيذكر صفاتها وأحياءَها، وللدّلالة على أهميّتها استخدمها القرآن الكريم كوسيلة محسوسة للتّعبير عن قدرته وعظمته سبحانه وتعالى، جاء في سورة الكهف: [قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا] [الكهف: 109]. ويتحدّث القرآن الكريم في سورة النّور عن صفات البحر وخصائصه: [أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ] [النّور: 40]. ويذكر القرآن الكريم فوائد البحر وخاصّة الملاحة ففي سورة البقرة: [إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ] [البقرة: 164]. وما تزال هذه النّعمة من أضخم النّعم التي أنعم الله سبحانه وتعالى بها على الإنسان فيسّرت له أسباب الحياة والانتقال والرّفاهيّة والكسب.

ويعتبر البحر مصدراً رئيسياً للغذاء الصّحيّ كما أشارت إليه سورة النّحل [وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ] [النّحل:14]، فنعمة البحر وأحيائه تلبّي ضرورات الإنسان وأشواقه، فمنه اللحم الطّريّ من السّمك وغيره من الطّعام. والبحر مصدر هام للحليّ والجواهر والمعادن الثّمينة التي تلبّي متطلّبات الإنسان الاقتصاديّة والتّنمويّة [يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ] [الرّحمن: 22]. وفي سورة فاطر [وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ] [فاطر: 12]. أمّا في سورة الرّوم يخبرنا القرآن الكريم عن خطر يتربّص بالبحر وأحيائه يتمثّل بالتلوّث البحريّ، يقول الله تبارك تعالى في سورة الرّوم: [ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ] [الرّوم: 41].

التربة في القرآن الكريم:

تتكوّن التّربة من الماء والهواء والمعادن العضويّة، وهذه العناصر مرتّبة بنظام فيزيائي وكيميائي معقّد بحيث تهيئ هذه المكوّنات قاعدة صلبة لتثبيت النّباتات فضلاً عن تزويدها بمختلف احتياجاتها من المواد الأساسيّة لبناء أجسامها، ويعتبر الطّين محدّداً لخواص التّربة الفيزيائيّة والكيميائيّة و العامل الأساسي في التفاعلات التي تتم داخل التّربة[1].

وقد ذكر القرآن الكريم التّربة والطّين في عدّة سور قرآنيّة كريمة؛ وجاءت في سورة البقرة: [يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا

---

(1) كيمياء التلوّث البيئي، عدنان مساعدة، ص187.

يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ] [البقرة: 264]. وفي سورة النّحل: [يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ] [النحل: 59]، هذا عدا الآيات الكريمة التي ذكرت التّراب صراحة كمادّة أساسيّة في خلق الإنسان.

أمّا الطّين يقول تعالى في سورة الأنعام: [هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ] [الأنعام: 2]. وذكر الصّلصال في سورة الحجر: [وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ] [الحجر: 26].

وعن الثّروة الجبليّة والمعادن قال تعالى: { وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ] [فاطر: 27]. وقال أيضاً: [وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ] [النّحل: 81]

وقال تعالى في سورة الأعراف: [وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ] [الأعراف: 58]. ومن الملحوظ جداً أنّه تعالى قال هذا بعد أن تكلّم عن ظاهرة الرّيح ونزول المطر بقوله: [وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦ] [الأعراف: 57]. وبعد أن أنذر البشريّة من الإفساد في الأرض [وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا] [الأعراف: 56]. ثم قال: [وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ...] [الأعراف: 58]. أي البلد الصّالح التّربة أو العذب التّراب، والتي لم يلحق بها تلوث أو تسمم، ثمّ تحدّث عن التّربة التي مسّها الفساد والخبث والتلوّث فقال: [وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗا] [الأعراف: 58].

[وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ] [الأعراف: 58] أي الأرضُ الكريمـةُ التّربـة [يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦ] [الأعراف: 58] بمشيئته وتيسيره، عبَّر عن كثرة النّباتِ وحسنِه وغزارةِ نفعه لأنّه أوقعه في مقابلة قولِه تعالى: [وَٱلَّذِي خَبُثَ] [الأعراف: 58] من البلاد كالسّبخة والحرَّة [لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗا] [الأعراف: 58] قليلاً عديمَ النّفع[1].

الغطاء النباتي في القرآن الكريم:

يصنّف القرآن الكريم الغطاء النّباتي تصنيفاً شاملاً ودقيقاً، فذكر الشّجر بصورة إجماليّة في سورة النّحل: [هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ] [النحل: 10] و خصّ بعض أنواع الأشجار كشجرة الزّيتون في سورة المؤمنون [فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ لَّكُمۡ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝١٩ وَشَجَرَةٗ تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ] [المؤمنون: 19، 20]، وذكرها صراحة في سورة النّور فقال: [ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۗ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ] [النّور: 35]. ثمّ يذكر النّخيل في سورة البقرة: [أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ] [البقرة: 266]. وفي سورة ق: [وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ] [ق: 9، 10]. وفي سورة النحل: [يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ

---

(1) تفسير أبي السّعود 2 /495.

وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ] [النحل: 11] وفي سورة الأنعام [وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ] [الأنعام: 141]. وفي سورة النّحل: [وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ] [النّحل: 67].

ويذكر القرآن الكريم في سورة يس الحبوب بصورة عامّة: [وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ][يس: 33]. ويذكر القرآن في سورة الأنعام صنفين من الحبوب: ما كان متراصّاً بعضه فوق بعض كالقمح والشّعير، والصّنف الثّاني ما يكون على شكل أوعية كالفول والحمص ونحوهما من قرنيات، سواء أكانت بريّة أم غير بريّة، يقول تعالى في سورة الأنعام: [وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ] [الأنعام: 99]، كما يذكر القرآن الكريم الخضراوات في الآية السّابقة، فعلى الرّغم من أنّ كلمة خضراً لم تعط إشارة واضحة ومباشرة لكلمة خضراوات التي نعرفها ولكن ترى بعض التّفاسير المعاصرة أنّ المراد (بخضرا) كلّ نبات أخضر غضّ، وما من شكّ أنّ الخضراوات المعروفة لدينا تندرج تحت هذا المعنى.

ويخصّ القرآن الكريم بعض أنواع الخضراوات صراحة، فقد جاء على لسان قوم موسى υ في سورة البقرة: [وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ

مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ] [البقرة: 61]. وهذا يضم الفاصولياء والبازلاء والحمص والفول والكوسا والقرع واليقطين والثوم والبصل. ويذكر القرآن الكريم الفواكه ضمن مفهومين: مفهوم عام كما جاء في سورة عبس [وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا] [عبس: 31]. قال ابن كثير رحمه الله: أمّا الفاكهة فهو ما يتفكّه به من الثّمار. قال ابن عباس رضي الله عنهما: الفاكهة: كل ما أكل رطباً. والأبّ ما أنبتت الأرض، ممّا تأكله الدّواب ولا يأكله النّاس[1].

وبناءً على ذلك تكون جميع أنواع الفاكهة من تفاحيّات ولوزيّات وحمضيّات من الفواكه وإن لم يرد نصّ قرآني صريح بجميع أنواع الفواكه التي نعرفها. أمّا المفهوم الخاصّ فقد خصّ القرآن الكريم بعض أنواع الفواكه كالتّين والرّمان والتّمر والموز في سورة الواقعة: [وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ] [الواقعة: 29].

ونختم الغطاء النّباتي بالأعشاب والحشائش الذي ترعاه الدّواب كما جاء في سورة عبس[وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا] [عبس: 31]. والأبّ كما فسّره ابن عبّاس رضي الله عنهما: "ما أنبتت الأرض ممّا تأكله الدّواب ولا يأكله النّاس". وفي رواية عنه: "هو الحشيش للبهائم وما أنبتت الأرض للأنعام"[2].

والأشجار نعمة من نعم الله وآية من آياته في الآفاق، ولقد ساق الله رزق السّماء الماء ليجعل منه هذه الأشجار غابات وارفة الظّلال في الأرض قال تعالى: [هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ] [النحل:10]. ويقول تعالى: [أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ

---

(1) تفسير ابن كثير 8 /324.

(2) تفسير ابن كثير 8/ 324 .

شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ] [النّمل: 60] ويتحدّاهم القرآن الكريم في سورة الواقعة أن يأتي مخلوق بشجرة من العدم ليبيّن أهميّة هذه النّعمة وبالتّالي ضرورة صيانتها وحفظها وتنميتها وعدم إحراقها في الغابات، قال تعالى: [ءَأَنتُمۡ أَنشَأۡتُمۡ شَجَرَتَهَآ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنشِـُٔونَ] [الواقعة: 72].

الإنسان ودوره في البيئة:

يعتبر الإنسان أهمّ عامل حيوي في إحداث التّغيير البيئي والإخلال الطّبيعي البيولوجي، فبصفته خليفة الله في الأرض له الدّور المتعاظم والمهمّة الكبرى في الوجود، ولقد كرّمه الله تعالى تكريماً، [وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا] [الإسراء: 70].

ومن سلسلة تكريم الله تعالى للإنسان أن جعله خليفته في الأرض يعمرها ويعمل على إصلاحها واتّساع عمرانها وإظهار أسرار الله فيها، وفي سبيل هذا سخّر الله له ما في الكون من مخلوقاته ونعمه، وتدلّ عليه الآيات القرآنيّة والأحاديث النبّويّة، قال تعالى: [أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ] [لقمان: 20]. وقال: [أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ] [الحج: 65].

وفي سورة الجاثية: [ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ] [الجاثية: 12]. وأيضاً قال تعالى: [هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا..] [البقرة: 29].

ويبيّن تعالى في سورة إبراهيم أنه سخّر خلق الأرض والسّماوات لأجل النّاس، ولأجلهم أنزل الماء من السّماء ليخرج به ما يقتات ويرتزق به من الثّمرات وغيرها، ثمّ أوضح تعالى أنّه سخّر للإنسان الفُلك والأنهار والشّمس والقمر والليل والنّهار وما إلى ذلك... ثمّ آتاه الله كلّ ما سأل، نعمة من الله على الإنسان لتكريمه.. فقال: [ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ] [إبراهيم: 32- 34].

وكلّ هذه النّصوص توضّح أنّ الله تبارك وتعالى خلق البيئة وهيّأ مواردها لأجل النّاس ولكي ينتفعوا بها، وندرك منها أنّ الإنسان يحقّ له استهلاك تلك الموارد لاحتياجاته، والأرض التي ذكرها الله خُلِقَ منها الإنسانُ فهو قبضة من تراب هذه الأرض؛ من الأرض نشأ وعلى الأرض يمشي ومن الأرض يأكل وإلى الأرض يعود، وهذه هي بيئته، وقد شاءت إرادته سبحانه وتعالى أن تجعل الأرض مقرّاً للإنسان، كما شاءت الإرادة الإلهيّة أن تؤخّر ظهور الإنسان على هذه الأرض حتّى يتم إعدادها بكلّ لوازم الخلافة فيها كالماء والنّبات والحيوان والغلاف الجويّ المناسب، وقبل أن يتم ذلك لم يكن للإنسان وجود ولم يكن شيئاً مذكوراً. وصدق الله العظيم إذ يقول: [هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا] [الإنسان: 1].

وجاء الإنسان وتسلّم مهامّ الخلافة في الأرض وتسلّم الأرض متوازنة في كلّ شيء نظيفة من كلّ شيء معطاءة لكلّ شيء مهيّأة للحياة في كلّ عناصرها بأغلفتها الصّخريّة

والمائيّة والحيويّة وكلّها نعم الله سخّرها لخدمة الإنسان، فالإنسان يؤدّي مهمّته كما أرادها الله بنظام ثابت لا يتغيّر.

فمنذ وجوده وهو يتعامل مع مكوّنات البيئة، وكلّما توالت الأعوام ازداد تحكّماً وسلطاناً في البيئة، وخاصّة بعد أن يسّر له التّقدّم العلميّ والتّكنولوجيّ مزيداً من فرص إحداث التّغيير في البيئة وفقاً لازدياد حاجته إلى الغذاء والكساء.

لقد خرّب الإنسان البيئة المحيطة به أرضاً ونباتاً وماءً وهواءً؛ فالأرض قد اختلطت بها سموم المبيدات الحشريّة والمواد الكيماويّة، ولم تعد تعطي ثمراً إلّا وبه أثر من يد الإنسان المخرّبة وتحولّت بقاع كثيرة منها إلى مستودع كبير لقاذورات الإنسان ونفاياته ومخلّفاته. وشمل التلوّث كل شيء في بيئة الإنسان حتّى أنّ ألبان معظم الأمهات المرضعات أصبحت تحتوي على نسبة من المبيدات الحشريّة التي استخدمها الإنسان في علاج المحاصيل الزّراعيّة فإذا بآثارها تمتدّ لتطارد الإنسان في كلّ البيئات وتسبّب له كثيراً من أمراض العصر مثل الحساسيّة والسّرطان والأمراض النّفسيّة والعصبيّة، وسيتحقق وعيده سبحانه بكلّ من أفسد في هذه الأرض- التي جعلها الله مستقرّاً ومتاعاً للإنسان - ودمّر كلّ رائع وجميل فيها، يقول تبارك وتعالى: [ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ] [الرّوم: 41].

وجاء القرآن الكريم يحمل دساتير العدالة الخلقيّة التي تغرس في الطّبائع كلّ ما يوفر التّوازن وحسن التّربية والاستقامة مع حركة الكون والحياة، والقرآن الكريم في ذلك كلّه يخاطب في الإنسان أنفس شيء عنده وهو العقل، وأصحاب العقل هم الذين يستطيعون فَهْمَ القرآن الكريم واستيعاب صور الإعجاز فيه لقوله تعالى: [أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ] [الرّعد: 19].

وأصحاب العقل هم الذين يفهمون رسالة الوجود ويفقهون أسرار الكون قال تعالى: [إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ] [آل عمران: 190]. وما دام البشر يحترمون عقولهم فستبقى خلافتهم في الأرض قائمة فإذا خرجوا عن المنهج وأساءوا استخدام العقل وأفسدوا ملامح الصّورة الجميلة للبيئة حقّت عليهم كلمة الله وأصابهم الدّمار: [وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ] [هود: 117]. وقد أشار القرآن الكريم كذلك إلى عناد الذين يتسبّبون في هذا التلوّث وإصرارهم على الإسراف في تدمير موارد البيئة بادّعائهم أنّهم يقدّمون للبشر خدمات جليلة من خلال مخترعاتهم، وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى: [وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ] [البقرة: 11].

ولا يعني هذا أننا نتخلّى عن المدنيّة أو نهجرها لنعيش في ربوع الطّبيعة كما كان يفعل الأجداد بل علينا أن نكون حريصين في التّعامل مع روابط الطّبيعة فلا نقطعها أو نتلاعب بها ونهمل أحكامها، فلقد جاء كل شيء فيها متوازناً بحبّ ومقدار، يقول تعالى: [وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ] [الرعد: 8] ويقول أيضاً: { إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ] [القمر: 49].

وهذا التّوازن البيئيّ يشهد بأنّ الحقّ تبارك وتعالى إنّما سخّر البيئة ليكون الإنسان في الأرض خليفة عاملاً على عمارتها والاستفادة من خيراتها براً وبحراً وجواً. يقول الحقّ تبارك وتعالى: [هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ] [البقرة: 29]، إنّ كلمة [لَكُم] في الآية ذات مدلول عميق إنّها قاطعة في أنّ الله خلق الإنسان لأمر عظيم خلقه ليكون مستخلفاً في الأرض مالكاً لما فيها فاعلاً مؤثراً بالعمران وليس بالتّدمير والخراب، ومهمّة الخلافة منزلة لا يستهان بها. فماذا فعل الإنسان؟ تدخّل في كلّ عناصر البيئة وأفسد توازنها، وقطع أشجار الغابات وحوّل

أرضها إلى مزارع ومصانع ومساكن، وأفرط في استهلاك المراعي بالرّعي المكثف، ولجأ إلى استخدام الأسمدة الكيميائيّة والمبيدات الحشريّة بمختلف أنواعها، وهذه كلّها عوامل فعّالة في الإخلال بتوازن النّظم البيئيّة، ينعكس أثرها في نهاية المطاف على حياة الإنسان؛ لأنّه حينئذ يفسد ولا يصلح، فالقضية تدور حول سلطان الإنسان وحقّه في استخدام واستهلاك الموارد البيئيّة الطّبيعيّة التي استخلفه الله فيها، يعني مدى تلك الخلافة وما يلحق بها من صلاحيّات وسلطات.

وقبل الخوض فيها ينبغي التّفطّن بأنّ الموارد البيئيّة يمكن تقسيمها إلى:

1. الموارد التي يمكن حيازتها للانتفاع بها؛ كالأرض والزّروع وغيرها، وتسمّى بالأموال المتقوّمة طالما تمّت حيازتها.
2. الموارد التي لا يمكن حيازتها وإحرازها مثل الشّمس والقمر والنّجوم والهواء والبحار... وهي ليست بأموال ولا يمكن تملّكها وحيازتها على وجه الاختيار.
3. الموارد المشتركة بين القسمين السّابقين؛ وهي الموارد المباحة أو الثّروات العامّة؛ وهي كلّ ما خلقه الله لكي ينتفع به الإنسان على وجه معتاد وليس في حيازة أحد رغم إمكان حيازته، فالطّيور في الهواء مال مباح ما دامت لم تدخل في حيازة أحد، وبصيدها تخرج عن إباحتها وتدخل في حيازة من اصطادها، كما أنّ الأسماك في البحار والأنهار والحيوانات البريّة في البوادي والغابات والقفار مال مباح وثروة عامّة ما لم تدخل في حرز أحد بالصّيد أو غيره.

ويمكننا القول بأنّ الإنسان له حقّ الملكيّة على القسمين الأوّل والثّالث، فطبعاً له حقّ الاستعمال والتّصرّف فيما يملكه منها بوجه سائغ له، إلّا أنّ المالك يتقيّد بالقواعد الشّرعيّة في استعماله وتصرّفه فيما يملك، ومن تلك القواعد قاعدة "درءُ المفاسد مقدّم على

جلب المصالح"، فإذا كان للمالك استعمال الموارد البيئيّة التي تدخل في ملكه وذلك لتحقيق مصلحته ومنفعته، فيجب ألّا تؤدّي تلك المصلحة والمنفعة إلى ضرر أو مفسدة تصيب الآخرين في أنفسهم أو في أموالهم، لأنّ الضّرر ممنوع في الإسلام. حيث «لا ضرر ولا ضرار»[1] وروى البيهقي عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ الله ρ قَالَ: «لاَ ضَرَرَ وَلاَ ضِرَارَ مَنْ ضَارَّ ضَرَّهُ الله وَمَنْ شَاقَّ شَقَّ الله عَلَيْهِ »[2]. وفي رواية الدارقطني عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ρ قَالَ «لاَ ضَرَرَ وَلاَ ضَرُورَةَ وَلاَ يَمْنَعَنَّ أَحَدُكُمْ جَارَهُ أَنْ يَضَعَ خَشَبَهُ عَلَى حَائِطِهِ»[3].

فالذي يستخدم المبيدات الحشريّة الكيميائيّة لحماية محصولاته الزّراعيّة، أو يشغّل مصنعاً تصدر عنه أصوات مزعجة، أو ينفث أبخرة وغازات سامّة يجب منعه من ذلك أو إلزامه باتّخاذ التّدابير التي تكفل عدم الإضرار بالغير؛ فجلبه المصلحة لنفسه لا ينبغي أن يكون على حساب المضار التي تَلحق بالآخرين.

ومن تلك القواعد أيضاً قاعدة "الضّرر الأكبر يُدفع بالضّرر الأخف" ففي الأمثلة السّابقة إذا كان يترتّب على حظر استخدام المبيدات الحشريّة نقصان المحصول، أو على فرض الحدّ من نشاط المصنع ضرر لشخص فذلك ضرر أخفّ يجب تحمّله في سبيل منع الأضرار الصّحيّة وغيرها التي تلحق بمجموع النّاس.

---

(1) حديث صحيح أخرجه الطبراني في معجمه والبيهقي وابن ماجه والدارقطني في سننهم وأحمد في مسنده ومالك في الموطأ.

(2) سنن البيهقي : باب لاَ ضَرَرَ وَلاَ ضِرَارَ .

(3) سنن الدارقطني.

ولا خلاف في أنّ تلك القواعد الفقهيّة وغيرها كثير تهذّب من سلطان الإنسان على الموارد البيئية الطّبيعيّة وتحمله على رعايتها والحفاظ عليها حتى ولو كان له عليها حقّ ملكيّة بالمعنى المتعارف عليه. بل إنّ مبادئ الإسلام تقرّر أنّ لحقّ الملكيّة وظيفةً اجتماعية فهو ليس حقاً مطلقاً على النّحو الذي يجعل للمالك حقّ استعمال واستغلال ما يملك كيف يشاء أو حقّ التّصرّف فيه على الوجه الذي تراءى له أو يهدره ويتلفه عشوائياً وبدون أي تبصرة ووعي.

فمقتضى الوظيفة الاجتماعيّة لِحَقّ الملكيّة أنّه إذا تعارض ذلك الحقّ مع مصلحة عامّة فتقدّم المصلحة العامّة لأنّ الحقّ الفرديّ ينبغي أن لا يقف حجر عثرة في سبيل تحقيق المصلحة العامّة، وإذا تعارض حقّ المالك مع المصلحة الخاصّة التي هي أولى بالرّعاية من حقّ المالك فهذه المصلحة الخاصّة تقدّم على حقّ المالك غير أنّه يجب أن يُعَوِّضَ المالكَ تعويضاً عادلاً.

ولا نتجاوز روح التّشريع الإسلامي إذا قلنا: إنّ القواعد والمبادئ الإسلامية المنظّمة لاستخلاف الإنسان في الأرض ومضمونها تنزل حقّ الإنسان على الموارد الطّبيعيّة من "حقّ الملكيّة" إلى مرتبة "حقّ الانتفاع" فقط. ولا يبدو هذا القول غريباً إذا عرفنا أنّ بعض فقهاء المذهب المالكي يرون أنّ الملكيّة بوجه عام لا ترد إلّا على المنافع فقط. أمّا الأعيان أي الموارد والثّروات البيئيّة والكونيّة فملكيّتها لله الواحد القهّار فقط. ولا ملك للإنسان فيها في الحقيقة[1].

ويؤيّده أنّ الله تبارك وتعالى أضاف المال إلى نفسه وجعل الذين يملكونه مستخلفين في إدارته فقال Y: [ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ

---

(1) للاستزادة راجع المدخل للفقه الإسلامي، محمد سلام مدكور.

وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ] [الحديد: 7]، [وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡ] [النّور: 33]. وقد قرّر تعالى في قرآنه المجيد أنّ له ما في السّماوات والأرض في مواضع كثيرة. [لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ] [طه: 6].

فحقّ الانتفاع بموارد البيئة مكفول لكل بني البشر، لا يسوغ انفراد فئة معيّنة من النّاس بهذه الموارد والثّروات، أو جزء منها ومنع غيرهم من الانتفاع بها.

ويقرّر المهتمّون بشؤون البيئة أنّ فكرة "الملكيّة المشتركة" للإنسان التي يراد من ورائها الحثّ على صيانة موارد الطّبيعة وعدم التعسّف في استعمالها أو الجور عليها هي فكرة جديدة نسبياً، حيث لم تأخذ مكانها إلّا في بعض الاتّفاقيّات الدّوليّة المعاصرة.. بيد أنّ هذا مفهوم يجب أن يصحح!! لأنّ الإسلام قد دعى إليه منذ أن بزغ فجره وقبل 1400 سنة ويزيد، حيث قال تبارك وتعالى: [وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ] [القمر: 28]. وقال في سورة الشّعراء: [قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ] [الشعراء: 155]. وجاء في الحديث النّبويّ الشّريف عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ρ قَالَ «ثَلاَثٌ لاَ يُمْنَعْنَ الْمَاءُ وَالْكَلأُ وَالنَّارُ »[1]. وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ρ: «الْمُسْلِمُونَ شُرَكَاءُ فِي ثَلاَثٍ فِي الماءِ وَالْكَلإِ وَالنَّارِ وَثَمَنُهُ حَرَامٌ»[2]. وروى أبو داود عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ρ: «لاَ يُمْنَعُ فَضْلُ الماءِ لِيُمْنَعَ بِهِ الْكَلأُ»[3]. وعَنِ امْرَأَةٍ يُقَالُ لَهَا بُهَيْسَةُ عَنْ أَبِيهَا قَالَتْ: اسْتَأْذَنَ أَبِي النَّبِيَّ ρ فَدَخَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَمِيصِهِ فَجَعَلَ يُقَبِّلُ وَيَلْتَزِمُ ثُمَّ قَالَ: يَا نَبِيَّ الله مَا الشَّيءُ الَّذِي لاَ يَحِلُّ مَنْعُهُ؟ قَالَ: «الماءُ». قَالَ: يَا نَبِيَّ الله مَا الشَّيءُ الَّذِي لاَ يَحِلُّ مَنْعُهُ ؟

---

(1) سنن ابن ماجه: باب "الْمُسْلِمُونَ شُرَكَاءُ فِي ثَلاَثٍ".

(2) رواه أحمد في مسنده، وابن ماجه وأبوداود والبيهقي في سننهم والطّبراني في معجمه.

(3) سنن أبي داود: باب فِي مَنْعِ الماءِ.

قَالَ: "الْمِلْحُ ". قَالَ: يَا نَبِيَّ الله مَا الشَّيءُ الَّذِي لاَ يَحِلُّ مَنْعُهُ؟ قَالَ: «أَنْ تَفْعَلَ الْخَيْرَ خَيْرٌ لَكَ»[1].

وهكذا عرف الإسلام فكرة الحقّ المشترك أو الملك المشترك للإنسانيّة في موارد البيئة الشّائعة، وأهمّها الماء والهواء وثروات أعالي البحار والمناطق القطبيّة... وتقرّر التّعاليم الإسلاميّة أنّه لا يجوز لأحد أن يمنع الآخرين من الانتفاع والاستفادة من تلك الموارد المشتركة؛ قال تعالى: [كُلاًّ نُّمِدُّ هَـٰؤُلَآءِ وَهَـٰؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا] [الإسراء: 20].

بل حضّ الإسلام على العمل على إنمائها لينتفع بها النّاس جميعاً كلّ حسب حاجته إلّا أنّ الحاجة تقدّر بقدرها كمّاً وكيفاً[2]. وروى البخاري ومسلم عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ τ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ρ «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ»[3] وروى مسلم والبيهقي عَنْ جَابِرٍ τ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ρ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا إِلَّا كَانَ مَا أُكِلَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ وَمَا سُرِقَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ مِنْهُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ وَمَا أَكَلَتِ الطَّيْرُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ وَلاَ يَرْزَؤُهُ أَحَدٌ إِلَّا كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ»[4]

---

(1) سنن البيهقي: باب مَا لاَ يَجُوزُ إِقْطَاعُهُ مِنَ المعَادِنِ الظَّاهِرَةِ.

(2) انظر حماية البيئة في الفقه الإسلامي، أ. د. أحمد عبد الكريم سلامة.

(3) صحيح مسلم: باب فَضْلِ الْغَرْسِ وَالزَّرْعِ، صحيح البخاري : بَاب فَضْلِ الزَّرْعِ وَالْغَرْسِ إِذَا أُكِلَ مِنْهُ.

(4) صحيح مسلم : باب فَضْلِ الْغَرْسِ وَالزَّرْعِ، سنن البيهقيّ : باب فَضْلِ الزَّرْعِ وَالْغَرْسِ إِذَا أُكِلَ مِنْهُ.

فصفوة القول إنّ الله تبارك وتعالى قد قدّم للإنسان عناصر وموارد الطّبيعة في الأرض والسّماء (الماء والهواء، النّباتات والحيوانات والطّيور... إلى آخرها) وجعلها تراثاً وملكاً مشتركاً للإنسانيّة جمعاء، وحثّه على تنميتها ورعايتها، وفوق كل ذلك حرّضه على النّظر والتّفكّر فيما خلق الله لأجله وسخّره له واستيعاب أسراره تعالى فيه، فيتّخذ منه ما يقوّي به إيمانه ويسعد حياته الدّنيويّة والأخرويّة... فإذا كان المولى Y قد خلق هذا الكون وهذه البيئة بهذا الإتقان والرّوعة فإنّه لا محالة لم يخلقها سدىً وعبثاً وباطلاً... فالذكي ينبغي عليه التّفكّر في هذه الآلاء الجسيمة التي أمتعه الله بها، قال تعالى: [وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ] [ص: 27، 28]، فالذكّي يتفكّر في خلق السّماوات والأرض ويقول: [رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ] [آل عمران: 191].

وهنا يثور التّساؤل هل أدّى الإنسان حقّ الله وشكره على عظيم نعمه فأخلص له، أم تكاسل وأهمل وأهدر هذه الخيرات وأفسدها ؟؟ كلّ هذه نعم من الله وفضل، فينظر كيفيّة التّعامل معها.. هل شَكَر أم كفر ؟ [قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ] [النّمل: 40].

إنّ طابع "الملك المشترك" لموارد البيئة يوجب على كل بني البشر أيّاً كانت مواقعهم الجغرافيّة أو مشاربهم السّياسيّة أن يحافظوا على تلك الموارد لأنّ في إهدارها واستنزافها على غير مقتضى الشّرع تعطيل للمهمّة التي أناطها الله تعالى بها، وبالتالي تعطيلاً للحياة ذاتها على الأرض وهذا منهي عنه شرعاً، لأنّ استمرار الحياة والحفاظ عليها مقصد أساسي من مقاصد الشّريعة الإسلاميّة.

ولقد نهى الإسلام عن الإسراف والتّبذير وحثّ على التزام القصد والاعتدال في استعمال ما أنعم الله من الموارد البيئيّة، قال تعالى: [وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ] [الأنعام: 141، 142]، فالله سبحانه وتعالى عدَّ الإسراف من اتّباع خطوات الشّيطان. وقال سبحانه وتعالى: [وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا] [الإسراء: 26، 27]. وقال Y أيضاً في سورة الأعراف: [يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ] [الأعراف: 31].

إنّ الإسراف وعدم الاعتدال في استخدام موارد البيئة خصوصاً المشتركة منها يعدّ ضرباً من ضروب التّعسّف والتّجاوز المخالف لأحكام الشّريعة وروح الإسلام، لأنّه تبذير من الإنسان فيما لا يملك؛ وهو "أمين" أو "وصي" يتولّى إدارة موارد البيئة لخير البشريّة جمعاء وليس من المغالاة القول بأنّ ذلك الإسراف والتّبذير من ضروب الفساد في الأرض المنهي عنه شرعاً، وقال تعالى: [فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ] [الشّعراء: 150، 152].

فعلى كلّ إنسان أن يقف مع نفسه ويقوِّم سلوكه البيئي ويُراعيَ الله فيما أنعم عليه من موارد البيئة؛ فإن تجاوز سنن الله وحدوده في التّعامل مع موارد وثروات البيئة وأخلّ بالتّعادل والتّوازن الذي أوجب الله تعالى بين عناصر تلك الموارد فإنه يفسد ولا يصلح، وقد نهى الإسلام عن ذلك حين قال Y: [وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ

تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ] [الأعراف: 74]، [وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا] [الأعراف: 56]، [فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ] [الأعراف: 85]، [وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ] [القصص: 77]. وروى أحمد عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّ النَّبِيَّ ρ مَرَّ بِسَعْدٍ وَهُوَ يَتَوَضَّأُ فَقَالَ « مَا هَذَا السَّرَفُ يَا سَعْدُ » قَالَ أَفِي الْوُضُوءِ سَرَفٌ قَالَ « نَعَمْ وَإِنْ كُنْتَ عَلَى نَهَرٍ جَارٍ » (1).

فلا بدّ من العودة إلى الدّين الإسلامي لوضع الأمور في نصابها وإعادة التّوازن البيئيّ إلى ما كان عليه فلا خلاص للبشريّة من الدّمار المرتقب بسبب التلوّث البيئي إلّا بالعودة إلى الإسلام ففيه من ضوابط التّوازن البيئي ما يعيد الأرض ذلولاً معطاءة نظيفة صالحة لسكنى البشر.

إنّ الذين يتسبّبون في هذا الإخلال بالتّوازن البيئي هم أعداء الحياة وأعداء البشر، هذا الصّنف من النّاس يصدق فيهم قول الحقّ تبارك وتعالى: [وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ] [البقرة: 205]، هؤلاء الذين نصبوا مذابح الأشجار في الغابات البكر لأي سبب من الأسباب مثل ادّعاء إحلال الزّراعة وتشييد العمران ومواكبة العصر في تدبير لوازم الإنتاج... هؤلاء ما يهلكون إلّا أنفسهم يبدّدون ثرواتهم ويصدق فيهم قول الحقّ تبارك وتعالى: [وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ]

(1) مسند أحمد.

[الأنعام: 26]، وسيجنون ثمار تدميرهم للتّوازن البيئيّ الذي خلقه الله في الأرض قال تعالى:

[هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ] [الأنعام: 47].